الفصل الخامس والثلاثون

اجتماع الشمل

ذكرت أم عبد الله الوجه الذي رأته.. انها مها تلك التي ولدت طفلا هزيلا قبل الأوان.. لم تكن منتبهة لها، كانت عيناها مسمرتين على زوجها، واقتربت منه وهي تبكي للقياه فقبل وجهها ووجه الصغير المورد، وتقاطرت اليه بقيـة العائلة واجتمع الشمل على السرير، وغمر عزيز رأسه في صدر والده وهو في أقصى الفرح لرؤية والده حليق الوجه مشذب الشعر.. كان يبتسم فـي رضـى وسكينة في حجر والده.. قالت له أمه:

-لا تزعج والدك ياعزيز فذراعه لا تزال تؤلمه..

-كلا أنني بخير، دعيه فأنا مشتاق اليه!

وعانق عزيز والده مرة أخرى فضمه اليه بذراعه السليمة وقبله!

لمحت عينا مها تلك المرأة التي تواري نفسها خجلا فأشرق وجهها وقالت:

-ألم تعرفيني؟

-كيف لم أعرفك يا ابنتي؟.. ما شاء الله كيف أصبح الصغير! يـا دنيـا! أعطني اياه لحظة.. ماذا أسميته؟

-همام!

فرحت مها أن أحدا يأخذ عنها عبء الصغير وقالت لأحمد: "انهـا الدايـة التي أشرفت على ولادتي!"

جلست قربه فأمسك بيدها وضغط عليها.. لم يكن بحاجة ليحدثها أو تحدثه بشيء.. كلاهما يحس بما يعتلج به نفس الآخر.. سألها عن أحوالها فأخبرته بما يهمه معرفته.. وسألته حياة عن زوجها فأخبرها بأنه يمـضي الوقـت بلعـب الشدة.. وفي النزهات يسمك المناشف جيدا تحت ثيابه فلا يؤثر به جلد السوط،

واذا قال له المباحثي اللبن أسود أجابه بأن اللبن أسود.. يتحاشى الزوايا الحادة ولذلك لا يحتاج الى زيارة المستشفى..

-فهمنا أنت مشاكس، أما الدكتور فما ذنبه؟ انه يعالج نـصف البلـد دون مقابل.. أهذا جزاؤه؟.. سأذهب الى بيروت ولن أسكن هذا البلد مطلقـا.. بلـد ناكر للجميل!..

كانت أم عبد الله تناغي الصغير وهي جالسة على سرير سمعان..

-يفرجها الله حين يطلع!

-أهكذا تبقون دون محاكمة؟ الجماعة واضعين أرجلهم بماء بارد.. شهور تمضي ولا أبالي..

-أتقولين لي هذا القول؟

-لا، أريد أن أقول هذا القول في مظاهرة..

-مظاهرة!

-نعم، اتفقنا نحن النساء، سنقوم بمظاهرة ..

-شيء جميل.. وأنت يا مها؟

فأطرقت مها:

-نعم هكذا اتفقنا.. الإعتقال دون محاكمة ظاهرة مرعبة..

-أما أنها ظاهرة مرعبة فنعم، وأما أنكن ستبلغن هدفكن منها فلا.. كل ما يجري دون شرعية ولا قانون.. تحادثن أناسا وضعوا أنفسهم فـوق الـشرعية والقوانين.. قالت حياة:

-لاتثبط همتنا! ليتني لم أخبرك..

-لا تخرجي يا مها..

-لاتحرجني يا أحمد.. لقد وعدت..

-انسحبي! انك ستشغلين بالي عليك دون مبرر..

- لماذا تعاملني كأنني فتاة مراهقة؟ وأردفت حياة:

-عملنا أرجلهن من قصب يا أحمد.. في المرة السابقة اعتقلوهن بدلاء عن أزواجهن ورفعوهن فلقة.. لم تعد واحدة تجرؤ لتعيد الكرة..

-هل تحتملين فلقة؟

-لا يخيفوني! ترى أحدهم يقفز كالأرنب البري في دائرته خوفا من الناس!

-متى رأيتهم؟

-رحت، واجهت كثيرين.. شو أنا ساكتة!

-ما استفدت!

-المظاهرة أمر آخر.. يحبسوننا! في زمانه، سجن حسني الزعيم النـساء فدفع رأسه ثمنا لذلك..

-يا حياة، قلت لك لا حاجة للمظاهرة!

-أحكم على زوجتك أما علي فلا! سأتظاهر وأتظـاهر وأتظـاهر حتـى يفرجوا عنكم أو يحاكموكم!..

-أنتن نساء تعشن في بيوتكن لا تدرين ما يجري في الخارج..

-أنا امرأة ليس لي عمل فيسرحوني.. حجز حرية كم يـوم لا تخيفنـي.. ومثل ما قلت لك.. هم خائفون أكثر منا.. الناس تعيش على أعـصابها.. لـو قامت مشاجرة عادية في الطريق لانفرطت الوحدة..

-يا حياة لا يجوز هذا الكلام.. لا تعرفين أين يودي بك..

-الناس ما عادت تبالي.. كان الخوف يعقل الألسنة.. أما اليوم فإنك تسمع الشتائم أينما ذهبت.. في الباص، في الطريق، في مخازن التجار.. خربت بيوت أناس كثيرين.. وخابت آمال كثيرين..

-مهما يكن الوضع، أتركيني في هم واحد، ولا تجعلي همومي تكثر.. أنـا أدرى منك بما يجري.. عندما لا يحاسب السافل على ما تجنيه يداه، فيجـب أن يحسب للسافل حساب!..

وأراد تغيير الحديث فخاطب مها بعتاب:

-خذي صغيرك! حملته للخالة وشمرت عن زنودك للنقاش..

كان الكلام موجها لحياة فانبرت مدافعة عنها:

-مسكينة انها لم تنبس ببنت شفة! وأردفت بمزاح:

-أنت لا تكون سعيدا الاّ أن تكون تسعا وتسعين في المائة وزوجتك واحدا بالمائة.. عادل أفضل منك، لا يرمي بكلامي على الأرض.. وهو يحبذ كل مـا أفعل..

-لهذا تشطّين!

-أفضل.. المرأة ترتاح.. تعيش بكل أبعادها، وتحقق ذاتها.. أم تظن بـأن الله خلقكم من طينة وخلقنا من أخرى؟

-اسألي مها ان لم تكن مرتاحة معي تعيش بكل أبعادها وتحقق ذاتها!

وتبتسم مها وهي تداعب صغيرها، فما دام هناك من يـدافع عنهـا فـلا ضرورة للكلام..

-ألأنها لا تشكو يجب الاّ يكون هناك سبب لشكواها؟

ونظر أحمد الى مها وابتسامته تضج في وجهه ويده اليسرى مشغولة فـي المسح على شعر عزيز الغزير:

-أديك ما تشكين مني يا مها؟

فرمقته بحنان بالغ:

-لا، أبدا.. لم أعد أطمع بشيء في الدنيا الاّ أن تعود الي!..

قالت العمة راضية وهي تحمل الصغير عن مها..

-أفقت فجر هذا اليوم على طائرة تحوم في سماء المدينة، وكنت أحلم أنك تنزل منها بمظلّة وأنا في خـوف عليـك.. ولكنـك بلغـت الأرض سـالما.. واستبشرت خيرا، كانت رؤيا صافية كما أراك الآن، وعند الظهر جاء أخـوك وأخبرنا بأنك هنا.. شدة وزالت ان أحلامي تصدق..

-ولكنكم تأخرتم كثيرا! فقال عبد الوهاب:

-لم تكن زوجتك في البيت فانتظرناها!

وفسرت مها الأمر بقولها:

أخذت الصغار الى الغوطة، كان يوما مشمسا حلوا.. وجلست قرب منزلنا وذكرتك طويلا..

وحدثته كيف أجرت البيت وانتقلت الى منزل العمة راضية وعن اجتهـاد عزيز في مدرسته فربت على رأسه:

-هكذا أريدك, رجلا..

كانت أم عبد الله جالسة في ركنها تصغي بذلة وانكـسار "انهـم أكـابر!" وذكرت ابنها وفاض قلبها الجريح بهمومه، وجعل الكآبة ترتسم على وجنتيهـا الغائرتين..

وأخرجت مها علبة شوكولاتة من الكومودينة حيث أودعت العمة راضـية أكياس الفاكهة والفطائر والحلوى ومرت بها على الموجودين مبتدئة بأم عبد الله وسألتها:

-انشالله إبنك وجد عملا..

فقالت المرأة وهي تتأوه بحزن:

-يعدمني ياه يابنتي.. اشتغل مباحثي!